الهوية اللغوية بين الصورة الداخلية للّسان ورؤية العالم

د. مصطفى بلبولة(*)

إن الاعتقاد السائد لدى كثير من الاتجاهات، وبخاصة الاتجاه المنطقي، هو أن اللغة نظام من العلامات يعكس العالم ويعبر عنه، وبالتالي فإن هذا العالم يكون سابقا عليها وواحدا في كل الحالات. ومعنى هذا أن كل اللغات بمقدورها أن تعبر عن هذا العالم بحيث تكون دلالته واحدة في جميعها. وليس لتعدد اللغات إذن، أي مفعول في تحديد الكيفية التي ندرك بها العالم. فوظيفة اللغة ـ وفق هذا المنظور ـ وظيفة تصويرية تعبيرية؛ إنها وسيلة للتعبير والتواصل ووصف العالم. ويترتب على هذا أن اللغة بمقولاتها ليست سوى انعكاس لنظام الأشياء كما هي عليه في الواقع، أي إن هناك أسبقية لعالم الأشياء على عالم اللغة. وقد يبدو هذا التصور بديهيا وطبيعيا إلى حد أنه من الصعوبة بمكان وضعه محل تساؤل.

لكن الدراسات اللغوية الحديثة أفرزت بعض المساءلات التي زعزعت هذا الاعتقاد، مساءلات كان مدارها إعادة طرح إشكالية علاقة اللغة بالواقع وبالفكر وبروح الأمة التي تتكلمها وبذهنيتها.

لقد وجد الدرس اللغوي نفسه في هذه الحقبة أمام منعطف جديد، لم تعد فيه اللغة مجرد وسيلة للتعبير، بل أصبح ينظر إليها باعتبارها مستودعا للفكر وصورة له كما يذهب إلى ذلك «هردر»، فنحن لا نفكر داخل اللغة فحسب، بل بها أيضا، وبالتالي فإن كل أمة تتكلم كما تفكر وتفكر كما تتكلم[1].

ويلزم عن هذا التصور الثوري لوظيفة اللغة، أن اختلاف اللغات وتنوعها ليس مجرد

(*) أستاذ الفلسفة بجامعة حسيبة بن بوعلي - الشلف ت الجزائر.

(1) SCHAFF Adam, Langage et connaissance, traduit du polonais par Claire BRENDEL, éd. Anthropos, 1969, p. 18

اختلاف على مستوى البنى الصوتية والتركيبية فحسب، بل هو اختلاف يوجّه إدراك أفراد هذه الأمة أو تلك للعالم ويحدد الصورة التي تكون لهم عن هذا العالم. فاللغة بمجموع ألفاظها وتراكيبها تشكل أطرا لمقولات الفكر، وتشكل ضربا من الفهم القبلي لإدراكنا للعالم، فهناك ارتباط لا يُفَكُّ بين تركيب اللغة وصورتها الداخلية وبين إدراكنا الخاص للعالم.

وفي هذه الورقة، سنحاول أن نبين العلاقة بين هذين المفهومين المركزيين في الدرس اللغوي الحديث، أعني «الصورة الداخلية للسان» و«رؤية العالم»، وفي مرحلة ثانية، سنحاول أن نربط بين هذين المفهومين وبين روح الأمة وهويتها.

١- مفهوم الصورة الداخلية للّغة

لقد ظهر مفهوم «الصورة الداخلية» للّغة مع فلاسفة الرومانسية الألمانية، وبخاصة مع «همبولدت» مع بداية القرن التاسع عشر. ويعتبر هذا المفهوم أحد المفاهيم المحورية في الفكر اللغوي الحديث، كما يُعتبر أحد المظاهر الثورية في فلسفة اللغة. وقد عبر عنه همبولدت بقوله: « إن عمل الروح الذي يجعل من الصوت المنمفصل واسطةً للفكر، يُمَارَس وفق وظيفة مستمرة وموحدة، تلك الوظيفة التي إذا ما اضطُلِع بها بشكل تام قَدْرَ الإمكان وأُدِّيَت بنظام، تشكل صورة اللغة»[1]. ومعنى هذا هو أن الصورة الداخلية للّغة تتحدد باعتبارها خاصيةً للعمل الذي يمارسه الفكر على اللغة. إنها تعبر عن البصمة الفردية أو الوسْم المميز الحاصل من ذلك الاندفاع الذي تُجسِّد الأمة من خلاله قيمَها الذهنية والروحية والعاطفية في اللغة. فهي ليست سوى تجسيد لعبقرية الأمة، ومهما تعرضت اللغة لتغيرات عرضية مع مرور الزمن، فإنها تبقى هي نفسها ما بقي الشعب الذي يتكلمها هو نفسه.

إن اللغة وفق هذا التصور، ضرب من «اللوغوس» الذي يشكّل مبدأ وجود الأمة ويوحدها ويوجهها، وينطوي على هويتها العميقة، ولكنه يجعلها في الوقت نفسه منفتحة على الإنسانية بكاملها بفضل طابعه الشمولي.

---

(1) HUMBOLDT Wilhelm (von), Introduction à l'œuvre sur le kavi Introduction à l'œuvre sur le Kavi et autres essais (La recherche linguistique comparative dans son rapport aux différentes phases du développement du langage, La tache de l'historien, Le duel) trad. Pierre CAUSSAT, éd. Seuil, Paris.. p. 185.

وليس المقصود بالصورة الداخلية للّغة هو «الصورة النحوية»، بل هي العنصر الذي تتجلى فيه الديناميكية الروحية للأمة، بحيث إذا تَمَثّلنا «صورة» اللغة، استطعنا التعرفَ على المسلك الأصلي الذي اتبعته هذه اللغة أو تلك، وهو، بالتالي، أمر يسمح - في الوقت نفسه - بالتعرف على المسلك الذي انتهجته الأمة للتعبير عن أفكارها[1].

ويقابل «صورةَ اللغة» مادتُها المكوَّنةُ من العناصر الأساسية المتمثلة في الكلمات والقواعد النحوية إلخ...، وتلتحم المادة مع الصورة في اللغة اضطرارا، إذ لا وجود للمادة مجردةً من الصورة، ومن ثم فإن هذه الأخيرة هي الفضاء الروحي الذي يمنح العناصر المادية للّغة لحمتها.

ولما كانت «الصورة» - لا المادة - هي التي تحدد «هوية» اللغة، فإنها هي المبدأ الذي يجب أن يُعْتَمَدَ في تصنيف اللغات إلى أسر لغوية، فالقرابة بين اللغات يجب أن تكون قرابة من حيث الصورة، لأنه يمكن أن تشترك لغتان أو أكثر في بعض الكلمات، ومع ذلك قد تكونان منتميتين إلى أسرتين لغويتين مختلفتين.

ولكن المقابلة بين الصورة والمادة في اللغة بهذا الشكل إجراء منهجي لا غير، لأن الصورة والمادة تدخلان في علاقة أكثر تعقيدا مما قد توحي به هذه المقابلة المنطقية. إذ تصنع اللغة، انطلاقا من هذين العنصرين، وحدة وهي الكلمة.

ويرتبط مفهوم «الصورة الداخلية» للّغة **بالطابع الإبداعي** في استعمالها، ذلك المفهوم الذي أسس له التقليد الديكارتي وأعاد تناوله «تشومسكي» ليكون مفهوما مركزيا في لسانياته التي يعتبر فيها التوليد والتحويل حجر الزاوية. فاللغة ليست إنجازا تاما (Ergon) وإنما هي نشاط وإنتاج يتحقق باستمرار (Energeia) حسب تعبير «همبولدت». فهذا المبدأ الأخير مبدأ مولِّد داخل اللغة، وهو المبدأ الذي يسميه بـ«الصورة الداخلية» للّغة[2].

إن هذه الديناميكية الروحية ليست مجرد ملَكة أو خاصية للإنسان، بل هي جوهر الإنسانية، وليس الروح جوهرا مجردا، وإنما هو كينونتها. واللغة إذن، هي تمظهر لتلك الكينونة، أعني الروح، ولكن كونها تمظهرا له لا يعني أنها نتيجة له، بل هي تجسيد لديناميكية

(1) HUMBOLDT Wilhelm (von), Introductionà l'œuvre sur le kavi...op.cit. p. 187.

(2) CHOMSKY Noam, La linguistique cartésienne, suivi de la nature formelle du langage, trad. E. Delannoe et D. Sperber, éd. Seuil, Paris, 1969, pp. 40-41.

الروح أثناء نشاطه[١]، فليس ثمة أي فاصل بين اللغة والروح، بل هما أمر واحد ذو وجود داخلي من جهة، وتجلٍّ خارجي من جهة أخرى. فالعلاقة بينهما ليست علاقة نتيجة بسبب بقدر ما هي علاقة تطابق فـــ« اللغة هي الانتشار الحر للقوى الروحية للإنسانية»[٢].

إن الربط الوثيق بين التنوع اللغوي وتوزُّع الأمم وانتشارها من جهة، وبين ديناميكية روح الإنسانية من جهة أخرى، يجعل إمكانية توضيح أحد الطرفين وتفسيره بالطرف الآخر أمرا ممكنا. حيث «إن خصوصيةَ روحِ أمةٍ ما وبِنْيَةَ لغتها متحدتان داخليا إلى حد أنه إذا عرفنا أحد الطرفين، كان بإمكاننا استنباط الطرف الآخر منه كليا. إن اللغة هي التمظهر الخارجي لروح الأمم. إنها روحها، وروحها هو لغتها»[٣].

إن المفعول الذي يحدثه نشاط «الصورة الداخلية» للّغة يؤول إلى اعتبار الكلمات أكثر من كونها مجرد علامات لسانية تعكس الأشياء في ذاتها، بل هي دالة على الصور التي تحدثها تلك الأشياء في الذات، فـــ«الكلمة ليست نسخة مطابقة للشيء في ذاته، بل للصورة التي أحدثها هذا الأخير في النفس»[٤].

إن الصورة الداخلية للّغة تمثل المبدأ المركب الذي تنبثق منه كافة التمظهرات اللغوية، وبالتالي يجب أن تكون هي الموضوع الحقيقي للبحث اللغوي. ولما كانت «الصورة الداخلية للغة» هي الجوهر الخفي للّغة وخصوصيتها، فإن الكشف عن السمات المميزة للأمة يكون من خلال تحليل اللغة أكثر مما يكون بالاعتماد على المظاهر الأخرى التي تعكس ذهنية الأمة، كالعادات مثلا.

ومن خصائص الصورة الداخلية للّغة أن تكون دائما نوعية، حيث إنها هي التي تعبر عن فرديتها، لأن كل لغة تختص بإظهار فردية الأمة التي تتكلمها، وفي كل لغة تنشأ رؤية متميزة للعالم. ولهذا السبب، لا يمكن الحديث عن الصورة الداخلية للّغة في عمومها، وإنما نتحدث عن الصورة الداخلية لكل لغة خاصة، أعني عن فرديتها.

---

(1) HANSEN-LOVE Ole, La révolution copernicienne du langage dans l'œuvre de Wilhelm von Humboldt, éd. Vrin, Paris.. p. 44

(2) ibid. p. 45.

(٣) نقلا عن:

Adam SCHAFF, Langage et connaissance, trad. Claire RENDEL, éd. Anthropos, 1969, p. 26

(4) HUMBOLDT Wilhelm (von), Introduction à l'œuvre sur le kavi...op.cit. p. 198.

ويترتب على هذا أن تنوع اللغات هو في حقيقة الأمر تنوع للفكر، وبالتالي، فهو يفرض على كل دراسة لغوية أن تأخذ بعين الاعتبار هذا التمايز العميق بين اللغات، وأن تُتَناول كل واحدة كل منها وفق معاييرها الذاتية، ومن ثم يجب ألا تُفرَض عليها معايير غريبة عن طبيعتها وخصوصياتها.

إن الحديث عن خصوصيات كل لغة وارتباطها بفردية الأمة وطبعها، تتعارض مع وضع أية تراتبية للّغات، فلا تكون أية واحدة منها «أفضل» و«أرقى» من الأخرى، وإنما يكمن الفرق بينها في رؤى العالم التي تكشف عنها، وهو أمر يسمح لها كلها بأن تتطلّع إلى العالمية. ولهذا لا يمكن أن تختص أية لغة أو أية ثقافة بأية قداسة مزعومة، فكل لغة تنظِّم العالم بطريقة خاصة واستراتيجية أصيلة، ومن ثم فإن تنوع اللغات ليس سوى تنوع في «رؤى العالم».

٢- مفهوم «رؤية العالم»: رؤية جديدة للّغة

لقد أبدت الثقافة الأوروبية بداية من عصر النهضة حتى الأنوار اهتماما كبيرا بالبحث عن بناء لغة كونية، إما بإحياء لغة أدم المفقودة أو بتأسيس لغة رمزية تتجاوز التنوع اللغوي، وهذا ما دعت إليه بإلحاح النزعة المنطقية. وفي مقابل هذا الحنين إلى إحياء «لغة آدم» أو بناء لغة كونية اصطلاحية، يُصر الرافضون لهذا التوجه على استحالة تجاوز ظاهرة تنوع اللغات، لأن كل لغة طبيعية تعبر عن العالم من زاويتها الخاصة، ليبقى هذا التنوع وحده قادرا على استيعاب التجربة الإنسانية بكل أبعادها من إحساسات وإدراكات وتجريدات. وبالتالي، يبدو من غير الملائم التفكير في بنية كونية ثابتة للفكر، ما دامت اللغات في تنوعها تعتبر «مرايا» تعكس نمط تفكير الجماعات البشرية المتنوعة وحياتها وتجاربها ونظرتها للعالم. إنها تحتوي على تصورات وتصنيفات للعالم هي غاية في التنوع والتعقيد، وبالتالي فهي تعكس أشكالا معرفية مختلفة، وهو المعنى الذي يعبر عنه ج.ج. روسو بقوله: «إن اختلاف العلامات في اللغات يؤدي إلى اختلاف الأفكار التي تمثلها، وإن العقول تتشكل على منوال اللغات، وتصطبغ الأفكار بصبغة لغة القوم»[١].

إن جوهر اللغة يكمن في فرديتها وذاتيتها، ولهذا، فمن العبث البحث عن إمكانية لتعويض

(١) نقلا عن:
Sylvain AUROUX, La philosophie du langage, éd. P.U.F. Paris, 1996, p. 167.

هذا التنوع اللغوي بلغة تُختزل في مجموعة من الرموز ذات صلاحية كونية كما كان يحلم بذلك أصحاب تلك المشاريع.

ولكن رغم التأكيد على فردية اللغة ورفض الرؤية المنطقية الضيقة، فإن مفهوم «رؤية العالم»، يعبر عن رؤية مثالية أكثر عمقا، تنزع إلى الكونية وترتكز على بعض الخطوط الكبرى لنظرية المونـاد عند «ليبنتس» الذي هو واحد من أصحاب مشاريع اللغة الكونية. فالعالم، حسب «ليبنتس»، ليس معطىً إلا بانعكاسه في «المونادات»، فكل «موناد» يعكس الكون في شموليته ولكن من زاوية خاصة، وليست موضوعية العالم إلا نتاج لذلك الانسجام بين «المونادات». ووفق الصورة نفسها تماما، فإن كل لغة هي بمثابة موناد في ذاتيته، ولكن مجموع الرؤى التي تعكسها اللغات هو ما يشكل التصور الوحيد الممكن للموضوعية، لأن «كل لغة هي صدى لطبيعة الإنسان الكونية»[1] حسب تعبير كاسيرر.

إن مفهوم «رؤية العالم»، يتعارض مع حصر اللغة في مجرد نظام من العلامات تصلح للتواصل وبالتالي، يجب ألا ننظر إلى اختلاف اللغات كتنوع في الأصوات فحسب، بل هو تنوع واختلاف في رؤى العالم، لأن اللغة كما يقول همبولدت «هي شيء آخر غير كونها مجرد وسيلة تصلح لإجراء التفاهم، إنها نسخة للروح وللمنظورات (les perspectives) التي يسقطها الأفراد المتكلمون على العالم؛ أما التبادل الاجتماعي فليس سوى مساعد ضروري يسمح لها بالانتشار، فالتبادل أبعد من أن يشكل الغايةَ النهائيةَ لحركتها وعلّةَ وجودها»[2]. فرؤى العالم، إذن، هي التي تشكل الفيصل في تمايز اللغات بعضها عن بعض.

ويجب ألا نفهم من هذا أن مفهوم رؤية العالم يتعارض مع الوظيفة الاجتماعية للّغة بل يقضي بأن المنظور الاجتماعي للّغة تابع وثانوي وليس أوليا، ولا يمكن فهمه إلا من منظور أعلى رتبة منه، وهو المتطلبات الداخلية؛ فإذا كانت الحياة الاجتماعية متعذرة بدون لغة، فإن الحياة الداخلية للفرد هيَ التي تقتضي ذلك أولا. ومعنى هذا هو أن المنظور الداخلي الروحي للفرد هو أساس اللّغة قبل أن تكون اللغة من مقتضيات الحياة الخارجية الاجتماعية، فإنتاج اللغة حسب

(1) CASSIRER, Ernst, La philosophie des formes symboliques, 1- le langage, trad. (de l'allemand) Ole HANSEN-LOVE et Jean LACOSTE, éd. Minuit, Paris, 1972, p. 107.

(2) HUMBOLDT Wilhelm (von), Le duel, in : Introduction à l'œuvre sur le kavi et autres essais,op. cit., p.119.

تعبير همبولدت «يستجيب لحاجة داخلية للإنسانية، فهي أبعد من أن تُختزل في مجرد حاجة خارجية موجَّهةٍ إلى التواصل الاجتماعي؛ إنها محايثة للطبيعة الإنسانية، وهي الشرط الضروري الذي يسمح لها بإبراز القوى الروحية التي تسكنها، والوصول إلى رؤية العالم»[1].

إن طابع المحايَثة والتأصل للّغة في الطبيعة البشرية يزيحها من وضعها كمجرد شرط عرضي تابع لمقتضيات الحياة الاجتماعية إلى وضع أرقى هو كونها شرطا ضروريا ملازما لجوهر الطبيعة البشرية، وفي هذا قلبٌ لاتجاه المعادلة الكلاسيكية بين اللغة والتواصل، فعوضا عن أن يكون التواصل هو الدافع لإنتاج اللغة، فإن اللغة - وبحكم ضرورة داخلية - هي التي تنتج التواصل.

إن مفهوم «رؤية العالم» يعبر عن ذلك الإدراك للعالم الذي تؤطره لغة معينة وتوجهه. إنه مفهوم يأخذ صورة المبدأ الذي تأسست عليه نظرية التنوع اللغوي، وهو يُستعمل اليوم في فضاءات معرفية متعددة - وبخاصة في العلوم الإنسانية مثل الأنثروبولوجيا وعلم الاجتماع اللغوي - بمعانٍ أخرى تتفاوت من حيث قربها وبعدها من المعنى الأصلي، ولكنها تتقاطع كلها في كونها تمثلا أو إدراكا للعالم من قبل فرد أو جماعة.

٣- الأصل الأنثروبولوجي واللغوي لمفهوم رؤية العالم

وتعود جذور مفهوم «رؤية العالم» إلى الإشكاليات الأنثروبولوجية واللغوية التي طرحت بين أواخر القرن الثامن عشر وبداية القرن التاسع عشر. إنه مفهوم يكرس الارتباط الوثيق بين اللغة والفكر، ويؤكد على أن اللغة ليست مجرد وسيلة للتعبير عن حقائق جاهزة، وأن تنوع اللغات ليس مجرد ظاهرة تختلف فيها البُنى الصوتية والفونيمات، بل هو اختلاف وتنوع في «رؤىً العالم» وهو دلالة على تباينٍ بين الشعوب والأمم في كيفية إدراكها للعالم.

ولما كانت الذاتية دائما في تداخل لا يمكن تفاديه مع الإدراك الموضوعي للأشياء وللعالم، فإن كل نواة للفردية - وحتى بمعزل عن اللغة - هي مركز لمنظور يتم إسقاطه على العالم، فمن باب أَوْلى أن ينطبق الأمر نفسه على اللغة، إذ لما كانت الذاتية تسكن اللغة وتتخللها، وتفرض [illegible] فإن «كل لغة تعكس رؤية أصيلة للعالم»[2] فالعلاقة التي

(1) ibid. p . 151.

(2) HUMBOLDT Wilhelm (von), Le duel, in Introduction à l'œuvre sur le kavi ...op.cit. p.

يقيمها الإنسان مع الأشياء والعالم، تضبطها - بشكل أساسي وحصري - الكيفية التي تنقلها بها اللغة إلينا، وهذا يعني أن كل أمة محكومة بالرؤية التي تفرضها عليها لغتها، إذ تشكل اللغة حيزا، ما أن نفلت منه حتى ندخل في حيز آخر. وهكذا، فإن تَعَلُّمَ لغة أجنبية هو في واقع الأمر تموقُعٌ ضمن منظور جديد، وبالتالي هو تجديد لرؤية العالم، وإن كان الولوج في هذه الرؤية الجديدة للعالم لا يتحقق بصورة كاملة، لأننا نبقى دائما نحمل معنا رؤيتنا الأصلية إلى هذه اللغة الجديدة باعتبارها جزءا من العالم[1].

فطبيعة «رؤية العالم» إذن هي إدراك خاص ومتميز للعالم من قبل الأمة داخل اللغة وباللغة.

ويرتبط مفهوم «رؤية العالم» بمفهوم «الصورة الداخلية» للّغة وبتنوع اللغات، حيث إن هذه الصورة هي التي تؤطر بَنْيَنَةَ (structuration) اللغة، وبالتالي فهي تعبر عن نفسها في «رؤية العالم» أعني ذلك الإدراك للعالم الذي تنظمه اللغة.

إن هذا المفهوم ينسجم مع تعريف اللّغة باعتبارها فضاءً حيا تتقاطع فيه العناصر الثلاثة: الفكر والعالم وروح الأمة، فالتفاعل المستمر والخلاق بين الفكر واللغة والعالم تُخصِّبه الأمة، بحيث تعطي لغتها الخاصة جوهر فرديتها، وفي الوقت نفسه، تتشكل كأُمَّةٍ بفضل اللغة. إن هذه الفردية المجسَّدة في «الصورة الداخلية للّغة»، تعبر عن ذاتها في «رؤية العالم».

إن كون اللغة خاصية جوهرية في الإنسان لا بد أن يجعلها في ارتباط وثيق مع روح الأمة، إذ لا بد أن يكون ثمة تناسب بين خصائص هذه اللغة أو تلك وبين خصائص وسمات الحياة الروحية للأمة التي تتكلمها. وبالتالي فإن الدراسة المقارنة للّغات هي الطريقة المثلى للوقوف على السمات المميزة لكل أمة، بل على تاريخ الإنسانية بكاملها، فالمقارنة الفلسفية للّغات هي - بلا ريب - أفضل دراسة يمكن إجراؤها على التاريخ ومختلف سمات الإنسانية، لأن كل لغة تحمل بصمة فكر الشعب الذي يتكلمها وطبعه. فعبقرية الشعوب لا تتجلى بشكل أوضح مما هي عليه في لغتها، لأن كل أمة تتكلم وفق طريقة تفكيرها وتفكر وفق اللغة التي تتكلمها.

ووفق هذا المنظور، نجد تفسيرا لتعلق الفرد باللغة الوطنية وإبداء الولاء لها، إذ إن ذلك

198

(1) ibid. p. 199.

يعبر، حسب الخط الذي رسمه فلاسفة أمثال «هردر» و«شليجل» و«فيخته» و«هيجل»، عن انتمائه إلى وحدة لغوية وارتباطه وولائه للأمة التي تتكلمها، إنه ارتباط مبعثه الأنهمام بضرورة الحفاظ على ذلك الرابط بين المجموعة واللغة. «فالأمر يتعلق بالحرص على أن تكون الأمة ملتحمة داخل لغتها، وأن تتعرف على وحدتها في تقاسم لغة مشتركة تعطيها هويتها»[١].

إن ولاء الأفراد للّغة الأم ليس ولاء سطحيا ولا شوفينيا، بل هو انجذاب إلى كل ما يعتبر فيها علامة على روح الأمة التي تتكلمها، وبالتالي، فهو انجذاب إلى آدابها. ومرد ذلك، إلى ثلاثة أسباب، أولا إلى اليقين والطمأنينة والثقة التي تبعثها فينا لغتنا الأم أثناء الكلام والكتابة والاستماع، وثانيا إلى روح الجماعة والعلاقة التي يخلقها ذلك الإحساس بالأمان والثقة، وثالثا إلى أن اللغة تجعلنا نتشارك في السمات الذهنية[٢].

وانطلاقا من هذين المفهومين يمكن تأسيس أنثروبولوجيا تتخذ من الطبع وسمات الأمة موضوعها المركزي، وقد كان هذا بالفعل مشروع أنثروبولوجيا فلسفية عند همبولدت، إذ إن اللغة تمثل الفضاء المشترك أو لحظة التركيب بين تنوع الطباع الفردية والطبع المشترك لدى الأمة. ومن شأن هذه الأنثروبولوجيا أن تكشف عن الارتباط الوثيق والانتماء المتبادل بين لغة الأمة ورؤيتها للعالم. فاللغة - كما يقول هذا الفيلسوف الألسني «هي الوسيلة المطلقة والحسية على أية حال، التي عن طريقها يعطي الإنسان صورة لنفسه وللعالم في الوقت نفسه، وبالأحرى، يصير واعيا ذاتَه من خلال إسقاطه لعالَمٍ خارجَه»[٣].

النتيجة

أولا: إن العلاقة بين الأمة واللغة والتي تكاد تكون علاقة تماهي بين الطرفين، لا تعني أن اللغة مجرد خاصية للأمة قد تتساوى، من حيث الأهمية، مع مقومات أخرى، وإنما هي ماهية لها، أي هي روح الأمة. ومعنى هذا أن السمات الذهنية لأمّة ما، تتماهى مع تنظيمها اللغوي إلى حد أننا

(1) CRÉPON Marc, Le malin génie des langues, éd. J. Vrin,Paris, 2000, p.183.
(2) ibid. pp. ١٨٤-١٨٥.

(٣) نقلا عن:
Ole HANSEN-LOVE, op.cit. p.25

إذا استطعنا الوقوف على أحد الطرفين، أمكننا استنتاج الطرف الآخر منه، لأن الصور التي تنتجها القوة العقلية وتلك التي تنتجها اللغة، تبدو دائما مرتبطة بعضها ببعض بشكل تبادلي، فـ«اللغة - إذا شئت - هي التمظهر الخارجي لروح الشعوب، فلغتها هي روحها، وروحها هي لغتها.»[1].

إن هذا التماهي بين روح الأمة ولغتها، لا يسمح مبدئيا بإعطاء الأولوية لأحد الطرفين بالنسبة إلى الآخر، فلا تختزل اللغة في مجرد شكل من الأشكال التي تنتجها روح الإنسانية، ومن ثم فإن كل فصل بين القوة الذهنية واللغة يبقى أمرا مستحيلا، وعليه وجب التسليم بالمبدأ القاضي بأن الاختلاف في بنية اللغات يكشف عن تباين يعكس تماما ذلك التباين الذي تنطوي عليه السمات الروحية للأمم.

ثانيا: إن تنوع اللغات يوازي في حقيقة الأمر تنوع الأمم، فـكل أمة هي صورة روحية للإنسانية مميَّزة بلغة معينة ومفرَّدة. ومعنى هذا أن اللغة ليست سوى الأمة عندما تعبر عن ذاتها وفرديتها. ويترتب على هذا أن هناك تفاعلا بين الطرفين يصل إلى حد التماهي بينهما، وبالتالي، فإن التفاعل الذي يحصل بين الأمم، من صراع وهيمنة واحتلال... إلخ. يصبح مباشرة تفاعلا بين اللغات، ومن ثم يمكن القول إن تنوع اللغات ليس أمرا محسوما ونهائيا، وإنما هو في حركة مستمرة. وهو بهذا يعكس حقيقة مزدوجة؛ فمن جهة يبدو كظاهرة في التاريخ الطبيعي، أي كنتيجة حتمية لتنوع المجموعات الإثنية وتَفَرُّقها، ومن جهة أخرى يبدو كما لو كان يعبر عن غائية خفية لتشكل الأمم.

ثالثا: ليس التنوع اللغوي ظاهرة سطحية تعبر عن نسبوية لا معنى لها، وإنما هو تنوع متجذر في تلك الفردية التي تميز كل أمة عن غيرها. إنه ظاهرة متلازمة مع تعدد المجموعات الإثنية، وبالتالي، فإن اللغات هي نتاج لعبقرية الشعوب والأمم، من حيث هي تعبير عن أفكارهم وعواطفهم وعاداتهم وتجاربهم الخاصة. فخصوصيات لغة الأمة هي على صورة روح تلك الأمة التي تتكلمها. إنه تنوع يتجاوز حدود التنوع في الأصوات والفونيمات إلى تنوع في الفرديات، وهو نفسه تنوع الأمم التي هي بدورها - تماما مثل اللغات - فرديات ووحدات متميزة. فاللغات في تنوعها تعتبر «مرايا» تعكس نمط تفكير الجماعات البشرية المتنوعة وحياتها وتجاربها ونظرتها للعالم. إنها تحتوي على تصورات وتصنيفات للعالم هي غاية في

(1) HUMBOLDT Wilhelm (von), Introduction à l'oeuvre sur le Kavi..., op. cit. p. 179.

التنوع والتعقيد.

رابعا: إن التفكير في لغة كونية تتجاوز ظاهرة تنوع اللغات أمر مستحيل، لأن كل لغة طبيعية تعبر عن العالم من زاويتها الخاصة، ليبقى هذا التنوع وحده قادرا على استيعاب التجربة الإنسانية بكل أبعادها من إحساسات وإدراكات وتجريدات.

الخلاصة

إن كل لغة هي في واقع الأمر فيضٌ متميز لتلك الديناميكية الروحية التي تسكن الإنسان، وبالتالي فإن كل محاولة لفهم مظاهر النشاط الإنساني لدى أمة معينة تقتضي - منذ البداية - استهداف «نقطة الوصل» بين لغة الأمة والقوى الروحية التي تستمد منها هذه الأمة مقومات وجودها وتمنحها أسلوبها المميز، وهذا التميز هو الذي يعطي للّغة صبغتها القومية، لأنها ضاربة بجذورها في تلك الديناميكة الروحية للأمة. ويترتب على هذا، أن كل بحث يهدف إلى معرفة تَشَكُّل اللغات وحياتها واختلافها، لا بد أن يستند إلى هذا المبدأ الروحي، لأن الانسجام الداخلي لكل لغة ليس سوى انعكاس لذلك الحس اللغوي المحايث لروح الأمة[1].

إن الروح التي تسكن الأمة لا بد أن تسكن لغتها، وبقدر ما تبقى السمات المميزة للأمة مستمرة عبر الزمن، فإنها تتجلى لا محالة في اللغة، والسمات التي تخفُت أو تتلاشى عبر الأجيال، يخفت أو يتلاشى صداها في اللغة كذلك.

(1) HUMBOLDT Wilhelm (von) , Introduction à l'oeuvre sur le Kavi..., op. cit. p. 144.

قائمة المصادر والمراجع

- HUMBOLDT Wilhelm (von), Introduction à l'œuvre sur le Kavi et autres essais (La recherche linguistique comparative dans son rapport aux différentes phases du développement du langage, La tache de l'historien, Le duel) trad. Pierre CAUSSAT, éd. Seuil, Paris.

- AUROUX Sylvain, (sous la direction de), Histoire des idées liguistiques, t.3, éd. Mardaga, Belgique, 1989.

- CASSIRER Ernst, La philosophie des formes symboliques, 1- le langage, trad. (de l'allemand) Ole HANSEN-LOVE et Jean LACOSTE, éd. Minuit, Paris, 1972.

- CHOMSKY Noam, La linguistique cartésienne, suivi de la nature formelle du langage, trad. E. Delannoe et D. Sperber, éd. Seuil, Paris, 1969.

- CRÉPON Marc, Le malin génie des langues, éd. J. Vrin,Paris, 2000.

- HANSEN-LØVE Ole, La révolution copernicienne du langage dans l'œuvre de Wilhelm von Humboldt, éd. Vrin, Paris.

- SCHAFF Adam, Langage et connaissance, trad. Claire RENDEL, éd. Anthropos, 1969.